وفود المهتدين
إلى خاتم النبيين والمرسلين

دار الأمين

DAR AL AMEEN

طبع نشر توزيع

١ شارع سوهاج

خلف قاعة سيد درويش

الهرم ـ الجيزة

جميع حقوق الطبع

والنشر محفوظة للناشر

ولا يجوز إعادة طبع

أو اقتباس جزء منه بدون

إذن كتابي من الناشر

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

رقم الإيداع ١٩٩٣/٣٣١٧

I.S.B.N.

977—5424—15—1

وفود المهتدين
إلى خاتم النبيين والمرسلين
صلى الله عليه وسلم

إبراهيم حسن خلاف

دار الامين
DAR AL AMEEN

إهـــداء

إلى روح أمى وإلى روح أبى اللذين ربيانى صغيراً وإلى زوجتى الحبيبة التى ما تزال ترعانى كبيراً .

* أهدى هذا الكتاب .

إبراهيم حسن خلاف

تمهيد

منذ بعث الله سبحانه وتعالى محمد بن عبد الله نبيا ورسولا للناس كافة، وهو يعمل بلا كلل أو ملل من أجل تبليغ رسالة ربه، ونشر دعوته التي أخرجت الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى.

ولم يكن الطريق مفروشا بالورود.. أبدا، ولا كان خاليا من العقبات، والمتاعب والآلام.. ولم يكن الناس وبخاصة قريش يستقبلون دعوة الرسول إلى عبادة الله الواحد، ونبذ عبادة الأصنام بالرفض.. وإنما كانوا يعاندون، ويجاهرون بهذا العناد، وكانوا يعادون رسول الله، ويعلنون على الملأ هذا العداء.. وكانوا يؤذون رسول الله، ويعلنون بهذا الإيذاء، وكانوا يطاردون المسلمين، ويتلذذون بهذه المطاردة.. ثم يدخلون في مواجهة مع رسول الله والمسلمين، ينتج عنها شهداء من الجانب الإسلامي.. وقتلى من الجانب الآخر.. وتشريد أسر، وضياع أموال، وتصفية لوجود مجتمعات بالكامل، وترحيلها إلى ديار غير الديار!!

وكان هذا إيذانا بالتغيير الشامل في كل مناحي الحياة.. بدءاً بالعقيدة.. وانتهاء حتى بالخطوة يخطوها الإنسان.. لا في الجزيرة العربية فحسب، ولكن في العالم كله..

بدأ الرسول الدعوة وحيدا، وليس معه غير ربه.. يناصره، ويرعاه، ويؤيده بالجيل الأول من المؤمنين.. ذلك الجيل الرائع من أمثال أبي بكر وعمر، وعثمان، وعلي، وخديجة أم المؤمنين.. وبلال الحبشي، وياسر وسمية، وابنهما عمار، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي.. بدأ الرسول الغرس الصالح في مكة يواجه جبابرة الزمان، وصناديد الكفر من أمثال أبي جهل، وأبي لهب وغيرهما من أعداء النور والحق!

يواجه هؤلاء الطغاة وحده لكنه يصر على رعاية الغرس فيرويه من عرقه ودمه، وصبره، وكفاحه، وحلمه.. ويفلح الغرس بأمر الله، وتمتد جذوره وتذهب بعيدا بعيدا، ثم يصلب عوده، ويفرع في المدينة ويكون له أغصان وأوراق وظلال، ثم ثمار.. هي من إبداع المبدع جل جلاله.. هي نصر من الله وفتح مبين.. هي دخول الناس في دين الله أفواجا.. هي تسبيح من الرسول الكريم، واستغفار لربه على ما منحه من فضل، وما أسبغ عليه من جود بزوال دولة الكفر وميلاد دولة الإيمان.. دولة الإسلام.. دولة التوحيد ، والحب، والألفة والحق والعدل، والسلام.

To: www.al-mostafa.com

... وكان صلح الحديبية حدثا جليلا في حياة الدعوة، من يراه بعين بصيرته، وينفذ إلى أعماقه بعقله، يدرك أن الشرك فى طريقه إلى النهاية، وأن الحياة الدينية الجديدة تفرض وجودها.. وتتشكل تبعا لذلك الحياة الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والعسكرية.

ثم يتوج صلح الحديبية في معناه القريب بفتح مكة، وفي معناه البعيد بهزيمة هوازن وثقيف.. وفرض الهدوء.. يشمل الجزيرة التى تتفرغ في ظل النظام الجديد للدعوة وما تشتمل عليه من معان، وقيم، ومبادىء، ومثل ، هى قوام حياة الإنسان في كل زمان، وكل مكان.. ولا يكون بعد هذا الفتح العظيم إلا بعض جيوب هنا، وبعض جيوب هناك..

لم تعد هناك قوة في الجزيرة تستطيع أن تواجه محمدا. وعم السلام.. وأتاح هذا السلام الفرصة للعقل يعمل . وأعد رسول الله ﷺ جيشه وذهب إلى تبوك فألقى الله الرعب في قلوب أعدائه من الروم فلم يخرج منهم أحد لمواجهته.. وكانت هذه الحملة رسالة قوية الدلالة فهمها العرب فى الشام، والعراق، والبحرين، واليمن .. ومن بقوا على فكرهم داخل الجزيرة..

وعاد رسول الله ﷺ بعد أن صادقه أهل الشام من الملوك ورؤساء القبائل، والعشائر وتحالفوا معه سواء من أسلم منهم أو من بقي على نصرانيته.. وقد فقدوا جميعا الثقة في حليفهم القديم «الروم».

ثم كان أن دانت الجزيرة كلها من أقصى الشمال في الشام وأقصى الشرق فى البحرين والعراق.. وأقصى الجنوب فى اليمن، وأقصى الغرب حتى سواحل البحر، إذ أخذ ما تبقى من قبائل لم تسلم توفد وفودها للقاء محمد فور عودته من تبوك وتبايع بالإسلام.

وكانت مظاهرة لم ير التاريخ لها مثيلا، والمدينة تستقبل وفود العرب للنبى ﷺ من ثقيف، ومن تميم، ومن طيئ، ومن البحرين وحضرموت، وقبائل الأزد ومراد وهمدان، وبنى سعد، وبنى عامر ... ومن كل مكان.

بعض هذه القبائل جاء إلى رسول الله ﷺ وهى تغرق في بحار من الندم لأنها تأخرت فى قبول الدعوة.. وبعضها جاء بدافع المصلحة وحماية النفس والمال بقبول

الدعوة، لكنهم ما يكادون يصلون إلى المدينة، وتحتويهم روحانياتها، ويلقون رسول الله ﷺ حتى تتلاشى المصلحة الخاصة ودوافعها، ويعودوا وقد نذروا أنفسهم للجهاد في سبيل الله، ثم يكون وقعهم أشد على الكفار من أي شيء آخر..

ولقد تناولت في هذا الكتاب جانبا من هؤلاء الوفود، وخصوصا من جاءوا إلى النبي فور عودته من تبوك يحدوهم الأمل في أن يقبلهم رسول الله ﷺ وهم يخلعون حياة الكفر، ويلبسون حياة الإيمان.. يقبلهم رسول الله مسلمين.. مؤمنين .. موحدين.. مجاهدين في سبيل الله راجين أن يكفر الله بهذا العمل عما بدر منهم في أيام سابقة من عداء للإسلام والمسلمين، وما كان منهم من تأخير في قبول الدعوة.

وسوف أعود، بإذن الله، إلى هذا الموضوع ذاته أجلي موقف وفود أخرى وفدت على رسول الله ﷺ منذ كان في مكة قبل الهجرة، وحتى ذهابه إلى تبوك.

وهذه الوفود كلها تمثل جانبا خصيباً من جوانب الدعوة، تناولتها كتب السيرة بأسلوب علمي مقتضب، يجد القارئ وبخاصة الشباب بعض العسر في الوصول إلى فلسفتها التي بنت عليها ذهابها إلى المدينة ومبايعة النبي ﷺ بالإسلام.

ولقد حاولت قدر الطاقة تجلية هذه الوفود التي وفدت على رسول الله ﷺ بعد عودته من تبوك وبيان فلسفتها التي قامت على اقتناعها.. أو اقتناعها الذي قام على فلسفتها في قبول الإسلام بطريقة.. وأسلوب .. وصيغة فنية، ما قصدت من ورائها إلا تيسير الأمر على أجيال القارئين من مختلف الأعمار والثقافات، مع التزامي الدقيق بالخط التاريخي كما ورد في أهم مصادره وهو سيرة ابن هشام.

فإن أكن وفقت فهذا غاية ما أملتُ وما قصدت، وإلا فلقد حاولت وبذلت غاية الجهد، وأنا مطمئن إلى أنه على المرء أن يسعى، وليس عليه إدراك النجاح.

والله أدعو أن يجعله خالصا لوجهه الكريم

إبراهيم حسن خلاف

رئيس قسم التربية الدينية واللغة العربية

بمدرسة ناصر الثانوية للبنات

الصدفة .. واللؤلؤة..

وفـــد ثقـــيف

أخذ نفسا عميقا.. ثم صعده في ألم

ما أقرب الزمن!!

كم مر على هذا الحدث من سنين ؟!

وهز رأسه في أسى عميق...

لاشك أن الحدث كان شائنا، يتنافى وأبسط قواعد كرم الضيافة على الأقل، ونحن قوم لم نكن نحتاج إلى من يذكرنا بهذه القواعد، أو أبسط بسائطها!

وسرح «عبد ياليل» بفكره.. ثم أردف وهو يحدث نفسه

ماذا كان يغلف العقل ، والقلب آنئذ عندما ذهبت منا حرارة الرحمة، وتوارت سمة الإشفاق من الصدور؟

ماذا ران على العقل، والقلب، آنئذ فلم نبسط له رداء المودة، وهو يفد علينا بالرحمة ولم نعامله بما يليق به، وبدعوته التي ما خرجت في مضمونها على مفهوم العشيرة النقية، والفطرة السلمية، وهي تتناول الحياة !؟

.. قال الرجل

«لاتسرقوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تربوا» وكلنا يعلم أن السرقة مزرية بالمرء، مخلة بالشرف، وأن القتل خطيئة، وأن الربا أخذ مال بغير حق .. كلنا يعلم أنها نقائص .. خطايا.. كلنا يعلم عن يقين في قرارة نفسه أن ما قاله محمد حق!

.. وقال الرجل:

«ارحموا الضعيف.. ووقروا الكبير، ولا تنهروا السائل، ولاتقهروا اليتيم»

والله ما أنكرنا، ولا أنكرت التقاليد التقية هذه الدعوة !!

.. وقال الرجل:

«استوصوا بالنساء خيرا.. فما أكرمهن إلا كريم.. وما أهانهن إلا لئيم» وما عرفنا المرأة إلا أما، وأختا، وابنة، وزوجة! رضعنا منها الحياة، وعرفنا منها الإباء، والشمم، والشرف، والنخوة، ووجدنا فيها السكن، وبجانبها الأمل وبقربها السلوى، وفي جوارها المسرة، وفي رحابها البشر والسعادة!!

وكنا نصدقه، ولا نجد غضاضة فيما يدعو، ويحبذ:

.. وقال الرجل:

«أقيموا الصلاة، وأمروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر».

وما جهلنا الصلاة، بل كنا ننشدها في لحظات كربنا، وأوقات شدتنا:

.. وقال الرجل:

«آتوا الزكاة، وحجوا البيت، ولم يقل إنه إجبارى على كل واحد، وإنما قال: «إن استطعتم إلى ذلك سبيلا».

وكنا ننفق على الشعراء أكثر مما يطلب منا.. ما يأخذه الشعراء في كلمات قليلة يقولونها أضعاف أضعاف ما يطلب منا إنفاقه زكاة.. مع كامل علمنا أن الشعراء لا يستحقون شيئا مما يأخذون.. فقط ننفق عليهم لأننا غاوون، أما الحج فنحن نقر به، ولا نجهله ونعظم البيت ونقدسه.

.. وقال:

«غياث الملهوف، والسرعة عند الصريخ».

وكنا نباهي بهما، ونعدهما من المفاخر عندما نحتج بالأنساب، وجليل الأعمال.

ما اختلفنا في شئ مما يدعو له، وما وجدنا فيه إلا نظاما جديا في ظل معبود واحد وهو ما اختلفنا عليه!!

كان يريد في ظل هذا المعبود الواحد أن تأتلف الحياة، وأن تنتظم مفرداتها في

سلك واحد.. هو سلك التوحيد، يجعلها كالدر النظيم..

نعم.. ما اختلفنا في شئ إلا أنه كان يريد الحياة منتظمة، وعلى أسس ، وما كنا نريدها إلا على حالها من الفوضى، ونحن ندرك في يقين أن حياة الفوضى لا خير فيها، ولا أمل يرجى من ورائها.

وينكث «عبد ياليل» الأرض ببقايا سهم في يده، ثم يستطرد:

ماذا كان يريد لنا عندما دعانا إلى عبادة الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى لا شريك له، ولا أب ، ولا زوجة، ولا ولد؟

وإن اختلفنا معه ظاهريا، إلا أننا كنا نعى مدى صدقه، ومن خلال تعاملنا مع آلهتنا ، وازدرائنا لها كنا نصدقه، فما كانت آلهتنا إلا حجارة جامدة، لا تدفع شرا ولا تجلب خيرا، صنعها واحد منا في زمن، واختفى ، وترك نماذجها أمام أعيننا.. نراها ولا تروانا، نحس بها مثلما نحس بأديم الأرض من تحت أرجلنا، ولا تحس بنا، ونفزع إليها وهى في غيبة عنا، لا تبصر ، ولا تسمع، ولا تحس!

حتى هذا الملخذ الذى أثار عليه تراب الصحراء ، وأهال عليه حجارة الجبال، ما كنا في أعماقنا نكذبه فيه.

آه!! لقد سبقتنا قريش في فهم المغزى من هذه الدعوة، عندما انطوت على نفسها تفكر في الخسارة التى ستلحقها عندما يتوحد العرب في ظل مبعود واحد، وضللتنا، وهى تحارب محمدا... وإلا فلماذا عرضت عليه أن تجعله ملكا لو كان يريد الملك، وتعطيه مالا كثيرا لو كان يريد المال ... لماذا فعلت قريش كل ذلك في مراحل الدعوة الأولى؟!

وهز «عبدياليل» رأسه يمينا، وشمالا في أسى وحسرة !!

ماذا دهانا بيت «عبد ياليل» آنئذ ومحمد يأوى إلينا، وترفضه؟ ويلجأ إلينا وتتخلى عنه؟ ويحتمى بنا ونخذله؟ ويطمع في كرم ضيافتنا، وحسن استقبالنا، وجميل استماعنا، ونهينه بين جدران بيوتنا، وأمام حريمنا، وذرارينا، وعلى مشهد من الجيران، والعشيرة.. ثم نطرده، ونغرى به السفهاء يزفونه بفاحش القول، ولاذع السخرية، ويقذفونه بالحجارة، ويطاردونه، ولا يتركونه حتى يغيب هناك في الفلاة بعيدا عن

الأنظار، ولا يكفون عن ملاحقته إلا عندما تباعد بيننا وبينه المسافات؟!

ويطرق «عبد يا ليل» في حزن صامت، وحيرة مفجعة:

أية رجولة بقيت لنا؟! بل أي لؤم، وأية مشأمة حاقت بنا ونحن نستقبله في دارنا هذا الاستقبال؟ وأية نخوة عربية، وأية شهامة، ونجدة، يمكن أن نتمدح بها، ونحن نرفض تأمين روعته بين ظهرانينا، وقد خرج من مكة رافضا املك قريش ومالها، حاسر الرأس تحت وقدة الشمس الحارقة، ويكاد يكون عارى البدن إلا من ثياب بسيطة تستره في قيظ الصحراء المهلكة، وقد تحمل وعثاء السفر، وآلام الغربة، وجفاء الأهل، والعشيرة، وفقد الزوج والسكن في خديجة بنت خويلد، والمظلة الوحيدة الواقية غدر الطبيعة القرشية في عمه أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، وليس له من رفيق يؤنس وحشته في هذه الدنيا الغادرة الماكرة إلا مولاه زيد بن حارثة، وقد تنكرت له الدنيا، كما تنكرنا لكل قيمة، ولكل مثل شريف رفيع، وقد أظلمت أمامه كما أظلمت في كل ناحية من نواحيها هنا، وهناك، وفي كل مكان:

وضرب «عبد ياليل» رأسه بيديه:

– أي بشر نحن.. وأي أناس نكون؟!

يختار بيتنا دون بيوت ثقيف والطائف عامة.. يختارنا دون أهل ثقيف كلهم، وينزل علينا مُكَرَّمًا لنا بنزوله، فلا نكرمه نحن؟ يأتي لضيافتنا مشَرِّفاً لنا.. فلا نستضيفه، ولا نشرفه، ولا يكفينا أن نخرج على نواميس الشرف، ومواثيق الإباء العربي، وطبيعة النجدة البدوية والهمة، والنخوة الإنسانية، فنتنكر له، ونخذله، ونطرده.. بل ونحقره ونطعنه في كبريائه، وصميم فؤاده بإغراء سفلة الناس به لنجهز عليه، ونمزق منه العظم واللحم، حتى تسيل دماؤه.. دون أن نذكر حتى مجرد ذكر ما بيننا وبينه من صهر ونسب!!

واحتبست في صدر «عبد ياليل» زفرة توشك أن تنقطع لها نياط القلب، وشعر كأن البيت تضيق جدرانه، وتلتئم على عظامه فتحطم منه الضلوع ولا يقدر على التنفس.

وجعل يدور ببصره دون أن يبصر، أو يرى شيئا كبر أم صغر ، حتى صنمه القابع في ركن من أركان البيت.. كأن غيمة سوداء احتوته.. أو طمرته الرمال تثيرها رياح الصحراء المشئومة.

تململ في مجلسه كمن يبحث عن فرجة في قبر يرى من خلالها النور..

وكاد يصرخ.. بل صرخ، ولم يكن لصرخته أي رجع لصدى.. كأنه في بئر عميقة مظلمة.. مخيفة، وهو في قاعها لا يجد من ينقذه!!

★ ★ ★

وانتفض واقفا كالمذعور يعدو خارج البيت.

لا يعرف كيف سار، ولا يعلم ماذا رأى وهو يسير، ولا يظن مجرد ظن كم قطع من مسافة في جوف الصحراء بعيدا عن البيوت.. وريح يحسها جديدة تلطم وجهه وهو يشعر كأنه يعلو من الأرض، ولم يتوقف حتى صار على قمته، وعلى صخرة هناك جلس.

وتحولت الريح إلى نسمات رقيقة.. ماذا؟

أكان كابوسا .. أم حلما مفظعا؟!

لا .. لاكابوس.. ولا حلم..

إنه واقع مر.. واقع غير صحيح.. عليه هو أن يصححه، ولا يحتاج منه إلا إلى شجاعة في اتخاذ القرار!!

ونظر إلى السماء يتأملها..

في الآفاق نجوم تلمع..

ما زال يرى.. وقد كان خال نفسه لا يرى!

ودار ببصره يمنه، ويسرة.. ورأى على البعد نيراناً تشب.. هذه هي بيوت ثقيف.. لم يبعد كثيرا إذن.

وجال مع بصره بفكره في آماد سحيقة..

فكر في كل شئ دون أن يعلق بذهنه شئ.. إلا محمدا.. احتواه في كل شئ:

منذ رددناه هذا الرد الفاحش المنكر، وهو يدمي جسمه، وتدمع عيناه دون أن يفوه بكلمة يشتفي بها لنفسه، أو توعد يحفظ به ماء وجهه.. يكون فيه دركه لثاره.. ولو فعل فلا أحد يلومه.. فهذا حقه المشروع في الدفاع عن النفس.. وليته فعل!؟

★ ★ ★

ترى .. أكان إمساكه عن الكلام عن الرد علينا ترفعا منه، وكبرياء؟!

إن كان كذلك فما أشد ما يوقع بذلك علينا من إيذاء!!

أم كان إشفاقا علينا.. وإدراكا منه أننا في عماية جاهليتنا لم نكن نرقى إلى مستوى الإنسانية في الإنسان.. والآدمية في الآدمي؟!

إن كان كذلك فما أفظع هذا العقاب وما أقساه!! ونحن نستحقه.

ولاريب أن دموعه التي ذرفت .. ودمه الذي سال، لم يكن منا.. بقدر ما كان علينا رثاء وترحما!!

ألا ما أقواك يا محمد رغم ضعفك!

وما أضعفنا أمامك رغم قوتنا!

وما أكرمك.. وأسخاك رغم قلة الزاد والراحلة!

وما أفقرنا، وأتعسنا، والمال عندنا لا يعده عاد، ولا يحصيه محص؟!

كنا نظنك ، وأنت تقتحم بيوتنا علينا، لتعرينا لأنفسنا.. أنك تقتحم عرين الأسود واعتقدنا، ونحن لا نملك أمامك إلا هز ذيولنا أننا الذين نعريك، وكنت تنبهنا في جهالتنا إلى مبلغ ضعفنا، وقلة حيلتنا.. وكنا نعتقد أننا الذين نلعب معك لعبة الأقوياء مع من لا حول له، ولا حيلة، ولا رجاء!!

ألا ما أشد غباءنا!! بل ما أشد ضلالنا، وتيهنا في حياة خلت من كل مقومات الحياة ما أشد ضلالتنا، ونحن ننهش اليد الممتدة إلينا بالحياة على طبق من نور!!

★ ★ ★

هزمت يا محمد قريشا في بدر.. ثم في أحد رغم ما بدا على السطح.. ثم هزمت الأحزاب، ومن تصدى لك من العرب في كل مكان.

وكنا لا نظنك تنتصر أبدا، وأن إلهك سيخذلك، وستنصر العرب آلهتهم، فلم يتخل عنك إلهك.. وقد تخلت عن العرب آلهتهم!!

★ ★ ★

أدرك الآن لماذا تركت ذيول الأسود.. وتعاملت مع رؤوسها، وكنت تصر عندما يواجهونك ما داموا قد بدأوا العدوان: إما أن تتصلح هذه الرؤوس أو أن يطاح بها! حتى عندما اعتقد العرب بصلحهم معك في الحديبية، وبما وضعوه من شروط للصلح أنهم نالوا منك.. كنت أنت الذى تنال منهم، وتنتصر عليهم بشروطهم، وبنودهم التى وضعوها!!

أية قوة قاهرة تساندك!؟

فتحت مكة المعقل الأخير لصناديد العرب، فخضعت مكة، وقانون الحرب يمنحك سوق مكة كلها فى السلاسل، والأغلال، والإطاحة برؤوس .. واسترقاق رؤوس.. ولكنك أعلنت العفو الشامل.. وحكمت التسامح الذى ما بعده تسامح، وقد شخصت إليك أبصارهم فى رعب ليس مسبوقا بمثيل ، وهم يتساطون:

ماذا أنت فاعل بنا!؟

وتعلنها مدوية تهتز لها جدران الدنيا:

اذهبوا فأنتم الطلقاء!!

من أنت!؟

* * *

وكان يجب أن ينتهى مسلسل الكره، والحقد، والثأر..لكن هوازن عادت تثير ما عفا عليه الزمن.. وعبأت قواها.. وحشدت حشودها ضدك.

وقادنا الطيش والعمى فاشتركنا مع هوازن في حنين، وكنا فى حنين أسودا لا تدرى أن عقولها فى ذيولها، وذيولها فى عقولها!!

جاءت هوزان ومن تحالف معها..

ونحن تحالفنا معها..

جاءت هوزان بقضها، وقضيضها..

ولقيتنا،أثبتُّ أننا فى هديرنا الفارغ الأجوف لم نكن إلا ثغاء كثغاء الشياه، وها هى ذى طوابير الأسرى ممن واجهوك بالألوف من الرجال، والنساء، والشباب.. من الأشراف .. ومن غير الأشراف..

والغنائم يتركونها لك كالجبال ضخامة..

ومن بقي على قيد الحياة ولم يقع في الأسر.. من فر هاربا هائما على وجهه.. من نجا برأسه من سيوف أصحابك، وأخذ يضرب في الصحراء بلا نصير، ولا دين، ولا أهل ، ولا ولد، وقد خسر كل شيء ، ولم يكسب شيئا.. عاد بالعار، وخزي الدهر!!

وكان لا بد أن تأتينا في ثقيف غازيا.. لا.. بل مؤدبا..

هذه المرة كان معك جيش .. وجيش لا يدري مبلغ قوته، هو جيش ينتصر أبدا، وكنا، وما زلنا في عماية من أمرنا، ومن كثرة عَدَدِنا، وضخامة عُدَدِنا، ووفرة المال لدينا، وتوهمنا الشرف، والسيادة والحسب!!

اعتقدنا أننا المنتصرون، وكنا نحن الخاسرين!!

حاصرتنا .. وقبعنا في دورنا.. وخلف أسوار حصوننا كالعجائز أو كالإبل البهم في الحظائر..

اعتقدنا أنها تصفية حساب قديم..

وأشهد يا محمد أنك أوجعتنا في حصارك لنا، وضربك إيانا من خلف الأسوار ، وقتلك لنا !!

وأشهد أيضا أنك كنت تستطيع إبادتنا، ونحن لا نملك إلا الاستتار خلف وهم القوة الكاذب..

وما كنا نمتنع عليك مهما أوتينا من قوة.. فما كانت قوتنا إلا جعجعة بدون طحن.. إن هي إلا أرقام صماء تحصي عدد ما عندنا من إبل وشاة وخيل.. وهي الأرقام ذاتها التي نحصي بها عدد الرجال، وما معهم من أسياف، ونبل، ورماح!!

وكانت قوتك المحيرة.. والتي أعجزتنا في فهمها، وإدراكها تسوق أمامها قوتنا الرقمية.. ثم تأخذها غنيمة بعد النصر.

أشهد يا محمد أنك أوجعتنا، وجعا لم تحس به الدنيا كلها من قبل، وأن تحس به من بعد، وأنت تنصرف عنا.. وكان في إمكانك على الأقل أن تسوقنا في الأغلال إلى المدينة تضحك الدنيا كلها علينا كما سقت هوازن، ومن جاء معها في حنين!!

لكنك مرة أخرى توجعنا بتركك لنا، وانصرفاك عنا، وكأننا لسنا أهلا لمنازلتك؟

★ ★ ★

لماذا تركتنا يا محمد.. وأبقيت على حياتنا، ولم تبدنا!؟

واعتصر «عبد ياليل» ذهنه:

لنتعذب في ضآلتنا أمام عظمتك، ونشقى بضعفنا أمام قوتك.. لتثبت أننا جبناء رعاع في الحرب كما أثبت من قبل أننا رعاع، وجبناء في السلم!؟

لتقول لنا إننا أحقر من أن تنصرف إلينا قوتك، فتركتنا إلى تبوك حيث لا عدل لقوتك على هذه الأرض إلا قوة الروم الخرافية!؟

واستند «عبد ياليل » إلى حجر على هذا المرتفع، ولم يكن هذا الحجر إلا نموذجا لمعبوده «اللات».

وعندما تبينه اتجه إليه متسائلا في حيرة ، وحنق شديدين:

هل تستطيع أن تقول لي: لماذا فعل محمد ذلك!؟

وتأمل وجه الصنم على ضوء النجوم الباهت، وهو يردد في سخرية:

أحذرك أن توقع في روعي أنك أخفته.. أو أن قوتك هي التي ردته.. أو أن لك سحرا أثر فيه!!

ثم ضرب بيديه وجه الصنم في غيظ:

هلا تقول شيئا !؟ قل إن كان عندك ما تريد قوله!! قل إن كنت تستطيع القول.. ألا ما أغباك من إله، وما أبشعك!!

★ ★ ★

وتلمست أذناه، وقدماه على الأرض وقع حوافر خيل..

فترك مكانه.. وهرع إلي بيته يتكفأ في طريقه، ويتعثر في الحصى والرمال مفزعا وخال نفسه يصيح:

إنها خيل محمد.. لقد عاد محمد من تبوك.. إنه الغزو من جديد!!